أ. مصطفى بوجملين
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات

المادة: النقد الموضوعاتي
المستوى: الثالثة ليسانس
التخصص: دراسات نقدية

المحاضرة السادسة

جون بيار ريشار
Jean-Pierre-Richard

هو أستاذ الأدب المعاصر في جامعة السوربون، وقد أمضى خمساً وعشرين سنة يدرّس الأدب الفرنسي في لندن ومدريد. واستفاد من أطروحات باشلار، وبوليه. وصاغ منهجاً نقدياً أطلق عليه اسم المنهج الموضوعاتي (التيمي). ووضع كتباً هامة من مثل: **الأدب والإحساس (1954)، والشعر والأعماق(1955)، والعالم الخيالي لمالارميه (1961)، وإحدى عشرة دراسة في الشعر الحديث (1964) ومنظر من شاتوبريان (1967)، ودراسات في الرومانسية (1971) وبروست وعالم الإحساس (1964) وستاندال وفلوبير (1975). وقراءات مجهرية (1979) وصفحات مشاهد (1984)...**

لقد بدأ جون بيار ريشار حياته النقدية عام 1954، وفي عام 1961 نال شهادة الدكتوراه ببحثه عن الشاعر الفرنسي مالارميه، وهو يعتمد على خلفية فكرية ونقدية تسمح له ببناء منهجه النقدي الخاص به، والذي يستند إلى الفلسفة الظاهراتية، التي يمثلها إدموند هوسرل والفلسفة الوجودية لدى جان بول سارتر، وفلسفة العناصر الأربعة عند غاستون باشلار.

وقبل الولوج إلى منظوره النقدي للممارسة التيمية، فإنّه وجب لزاما التعريج إلى المفهمة التي خصّها لمصطلح (الموضوع Thème)؛ إذ يمثّل عنده المبدأ الذي تلتقي عنده مفاهيم النص أو الكاتب و(المحور) الذي تجتمع كلّ القرابات السّرية في النص، و(المركز) الذي تتوجه إليه الدراسة. فمنه تبدأ، وإليه تعود. فهو يوجّه العملية النقدية. كما أنّه

-أي الموضوع- وحدة من وحدات المعنى وحدة حسية أو علائقية أو زمنية مشهود لها بخصوصيتها عند كاتب ما كما أنها تسمح بالتوسّع الشبكي أو الخيطي أو المنطقي ببسط العالم الخاص للكاتب، وهو النقطة المركزية التي ينطلق منها الناقد؛ إذ يشكّل مرتكزا تنظيميا محسوسا، أو دينامية داخلية، أو شيئا ثابتا يسمح للعالم حوله بالتشكيل والامتداد. ويكمن الموضوع في (القرابة السّريّة)، أو (العائلة اللغوية) التي يمكن عن طريقها تحديد (موضوع ما)، وتستند (العائلة اللغوية) إلى ثلاثة مبادئ: الاشتقاق، والترادف والقرابة المعنوية.

ويتمثل المنهج الموضوعاتي عند ريشار، في استنطاق مدلولات الصياغة اللفظية عبر ألفاظها وتراكيبها، وفق مبدأ التقدم والارتداد، وإضاءة المستوى اللغوي بالمستوى النفسي وبالعكس.وأحياناً قد يخرج على هذه (الموضوعية) الصارمة، المنهجية (الجذرية) ويعتمد الذائقة الشخصية فيترك الكلمة لانطباعية حادة، مؤكداً أن الأثر الأدبي لا يفهم إلا (كتنغيم) موسيقي ومعتقداً أنّ النقد هو انطباعية على ضوء منهج خاص يعتمده الناقد وسيلة لإلقاء المزيد من الضوء على الأثر الأدبي. وهذا ما أقدم عليه (ريشار) في كتابه الموسوم بـ(قراءات مجهرية)؛ حيث اكتشف (الجذور) أولاً، وفق منهجه النقدي، ثم أطلق عنان انطباعاته الذاتية لتؤكد هذه (الجذور) وتنطلق منها إلى آفاق قراءات تأويلية حرة...

ويحسن التأكيد كذلك على أنّ القراءة الموضوعاتية هي مسح لحقول حسية معينة، من أجل تحديد أهم الخيارات الشخصية الفاعلة فيها، وبيان لكيفية ارتسام دلالات الأشياء المرغوب فيها على كل مستوى من هذه المستويات المنفردة، وبيان لكيفية ارتسام دلالات الأشياء المرغوب عنها والمستبعدة.

ويتجسّد منهج ريشار النقدي في البحث عن الاختيارات (والأفكار المتسلطة) على الكاتب والمشكلات التي تكمن في أعماق وجوده الشخصي، وتراكيب أحلام اليقظة لديه. و(المركز) في شخصيته. ولتحقيق هذا الغرض فإن الناقد يحاول تأليف (متحف) من

الموضوعات والصور والإيقاعات المفضلة لدى الكاتب، باعتبارها وسائل التعبير الأولية التي يبدع الكاتب بواسطتها عالمه.

وتستهلّ نقطة البدء في هذا المنهج في (إحصاء) مفردات، في العمل الأدبي، ويتم تحديد العناصر التي تتكرر بشكل ذي دلالة لتوضع في مجموعات أو حقول شاقولية. ثم تلي ذلك الخطوة الثانية، وهي تحليل مفردات كل حقل من حقول (الموضوعات) المستخرجة، ثم استخراج النتائج، وصولاً إلى شبكة (العلاقات الموضوعية) المعبّرة عن بنية الموضوعات، في مرحلة شعرية معينة. وهي أشبه ما تكون بالشجرة التي يمثل الموضوع الرئيسي جذعها، وتمثل الموضوعات الفرعية غصونها.

وهكذا يبدو إسهام ريشار كبيراً في النقد الموضوعاتي حتى ليعد-بحق- مؤسسه. وقد أغناه بمقولات ومفاهيم زادته وضوحاً، من مثل: الكثافة، والبنية، والدال والمدلول، والعمق والعلاقة، والحلولية والخيال، والحسية، والتجانس... الخ. في ثنائيات ضدية مستقاة من ألسنية سوسير.

كما تُعنى القراءة الموضوعاتية عند ريشار بالبنى الخاصة التي تمثل الحضور الشعري إزاء الأشياء. ومن هنا يصبح النقد الموضوعاتي بحثاً عن (البنيات) من أجل التعرّف على المعنى الذي يوحّد هيكل المشهد الأدبي. وهذا المعنى هو الرؤيا الكلية الواحدة التي يتوصل إليها الناقد بعد تفكيكه للعمل الأدبي إلى وحدات صغيرة، وموضوعات، وترسيمات...

ويميّز ريشار بين نوعين من المعنى: (المعنى الظاهر)، و(المعنى الخفي). ومهمة النقد هي الكشف عن المعنى (الخفي) في النص الأدبي. ذلك أن المعنى موجود. وعلى الناقد إيقاظه من سباته العميق. والكلام الحقيقي هو ما لا يقال في الكلام. وقراءة الشعر الحديث يجب أن تتجاوز ما في السطور إلى ما خلف السطور.

إنّ قيمة الموضوع عند ريشار تتحدّد من خلال إلحاحه وقدرته على التمفصل وأنّ معنى؛ أي موضوع إنما ينتج عن علاقته بالآخر، ضمن (الكون التخييلي) وأنّ الموضوعات تميل إلى الانتظام في مجموعات مرنة عندما يهيمن عليها قانون التشاكل.

ومن (الموضوع) يميز ريشار عنصراً أكثر خصوصية ومحسوسية هو (الترسيمة Motif)، التي تتكرر وترتبط بطريقة مميزة. وقد اكتشف ريشار ترسيمات بروست، فوجدها في: الزهر والسمك، والمصباح، والناقوس، والخمر...؛ وهي تدل على اختيارات الكاتب، معروضة في العمل الأدبي بشكل غير منظم. ولكنها تتعلق (بالمعنى). وتحليل الموضوع ووصفه إنما يعني تعيين (الترسيمات) المتنوعة في داخله. وهذا يعني تحديدها من خلال ائتلافها واختلافها.